الباطية من الزيت حتى يفيض إلى جوف الثور ، فيأخذ قيم الكنيسة ذلك الزيت دائما ، فيسرج منه قناديل الكنيسة كلها ، ولا ينقطع نماؤه وزيادته على مرور الدهور والأيام. فإن أزيل الصبي الميت ، طفيت النار ولم يفض الزيت ، فإذا أعيد عاد الزيت إلى ماكان عليه . وقد سار إلى هذه الكنيسة جماعة من الناس رأوا ذلك وأفرغوا الباطية ثم أسرجوها بيسير من الزيت ، ففاضت وبدا منها ما ذكرنا .

ثم نرجع إلى ذكر الملك شوندين (١) .

قال فلما هلك الملك شوندين بعد أن ملك ١٣٥ سنة ودفن فى الهرم الغربى ، ملك بعده ابنه قمناوش وكان جبارا فظلم وجار وسفك الدماء واغتصب النساء ؛ واستخرج كثيرا من الكنوز ، فبنى بها قصور الذهب والفضة ورصعها بالجواهر الغالية ، وعمل بركا فصب فيها الجواهر وأرسل عليها الماء ، وفعل من مثل هذه الأشياء ما لم يفعل غيره من الملوك ؛ واستجهل من مضى من آبائه ، واستعبد الناس واستخف بالهياكل . فلما هلك ملك بعده ابنه فترك الظلم وتحبب إلى الناس ، وطلب العلم (١) وأعاد الهياكل كل إلى ماكانت عليه فى أزمان أجداده ، وجمع المنجمين والكهان ، وعملت فى أيامه من العجائب والغرائب ما كانت تعمل فى أيام آبائه (٢) ؛ وملك مدة ولم يكن له ولد . وطلب النسل من ٣٠٠ أمرأة ، فلم يقدر عليه لأن أرحام النساء عقمت فى أيامه . وفى وقته شاع خبر نوح عم . قال فلما لم يكن له ولد ولا أخ ، خاف على ذهاب ملكه فأشرك فى أمره فرعان ، وكان من بنى عمه ، وكان أحد الجبابرة ففتح البلاد وقهر الأمم ؛ فوافقته امرأة من نساء الملك على أن يقتل الملك ويلى الملك ففعل ، واحتوى على المملكة فتجبر وعلا وقهر . وأصل الفراعنة مشتقة منه ومن اسمه (٣).

(١) هنا يوجد خرم قدره حوالى صفحتين فى ج (أنظر هامش ١ ص ٦٦) .

(١) أنظر ابن رسته ، ص ٨١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٢ ، ٣٧ .

(٢) هنا ينتهى خرم البكرى (أنظر هامش ١ ص ٦١) .

(٣) عن كلمة فرعون يقول المسعودى (مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤١٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٩) : « سألت جماعة من القبط بالصعيد وغيره من أهل الخبرة عن تفسير فرعون فلم يخبرونى عن معنى ذلك ولا تحصل فى لغتهم . فيمكن والله أعلم أن هذا الاسم كان سمة =

وكتب إليه ذو ميشيل بن عديل بن درشيل الأكبر يخبره بأمر نوح ، فكتب إليه فرعان يشير عليه بقتل نوح فهلكا فى الطوفان .

ذكر أول من نزل مصر بعد الطوفان

يقال إن أول من نزل مصر بعد الطوفان مصر بن ينصر بن حام بن نوح عم ، بدعوة سبقت له من جده نوح عم . روى عن ابن عباس أنه قال دعا نوح عم لمصر بن ينصر بن حام ، وهو أبو القبط ، فقال : « اللهم بارك فيه وفى ذريته وأسكنه الأرض المباركة ، التى هى أم البلاد وغوث العباد ، التى نهرها أفضل أنهار الدنيا ، واجعل فيها أفضل البركات وسخرله ولولده الأرض وذللها لهم وقوهم عليها » . قيل وكان السبب فى نزول مصر أرض مصر ، وبه سميت ، أن فليمون الكاهن صدق نوحا عم وآمن بالله تعالى ، وسأل نوحا أن يحمله بأهله وولده معه فى السفينة فحمله . قال فلما انجلى الطوفان ، قال فليمون لنوح عم يانبى الله اجعل لى رفعة وقدرا أذكر به بعدى ؛ فزوج نوح [مصر بن] ينصر بن حام من بنت فليمون (١) فولدت له ولدا فسماه فليمون (١) على اسم جده لأمه . فلما أراد نوح قسمة الأرض بين بنيه قال له فليمون : يا نبى الله إن بلدى خير البلاد وأولى الناس به ابنى مصر ، فابعثه معى إليه أظهره على كنوزه وأوقفه على علومه ورموزه . قال فأنفذه معه فى جماعة من أهل بلده ، قيل إن عددهم كان ٣٠ رجلا فقطعوا الصخور وبنوا المصانع والمعالم ، وبنوا مدينة سماها ماقة ، ومعنى ماقة ٣٠ بلغتهم (١) وهى مدينة منف . وأطلع فليمون صهره مصر بن ينصر على

(١) الكلمات الواقعة بين (١) ، (١) ناقصة فى النص ولكنها موجودة فى البكرى (المخطوط ، ص ١٧) .

= لملوك تلك الأمصار ، وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية وهى الفارسية الأولى إلى الفارسية الثانية » . وحسب الطبرى (ج ١ ص ٢١٧) يكون الفراعنة من نسل العمالقة . قارن البكرى ، المخطوط ، ص ١٦ .

(١) انظر البكرى ، المخطوط ، ص ١٦ – ١٧ ؛ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٧ – ٨ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٨٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥١ – ٥٣ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٦٧ ؛ ابن دقاق ، ص ١٣٠

كنوز مصر وعلومها ؛ وعلمه خط البرابى ، وأخرج له المعادن من الذهب والفضة والزبرجد والفيروز وغير ذلك من الجواهر ، وأطلعه على عمل الصنعة فى الجبل الشرقى فسمى به المقطم .

وتزوج الملك امرأة من بنات الكهنة ، فولدت له أربعة من الولد منهم قطيم وإليه عهد بعد موته . فلما حضرته الوفاة أمر أن يحفر له سرب بين جبلين طوله ١٥٠ ذراعا ، ويفرش بالمرمر ، ويجعل فى وسطه مجلس مصفح بالذهب له ٤ أبواب ، على كل باب تمثال من الذهب عليه تاج مرصع بنفيس من الجوهر ، جالس على كرسى من الذهب قوائمه من الزبرجد . ونقشوا فى صدر كل تمثال آيات عظاما وأسماء من أسماء الله تعالى مانعة من أخذه ، وجعلوا جسده فى تابوت من زبرجد مصفح بالذهب ، وجعلوا معه فى ذلك المجلس ألف قطعة من الزبرجد المخروط ، وألف تمثال من الجوهر النفيس ، وألف إناء مملوءة من در الدر الفاخر . ووضعوا هنالك الصنعة الإلهية والعقاقير السرية ، ومعها الطلسمات العجيبة ، وأكوام من سبائك الذهب بعضها فوق بعض ، ثم كتبوا على المجلس : « مات مصر بن ينصر بن حام بن نوح عم بعد ٧٠٠ سنة مضت من أيام الطوفان ، ولم يعبد الأصنام إذ لا هرم ولا أسقام ، ولا عوز ولا اهتمام ، وحصن مجلسه بأسماء الله تعالى العظام ، التى لا يصل إليها أحد من الأنام ، وكان يدين للملك الديان ، ويؤمن بالمبعوث بالقرآن ، الداعى إلى الإيمان ، الظاهر فى آخر الزمان » . ثم دهموا ذلك بالصخور العظام وجعلوا فوقها الرمال ، وذلك بين جبلين متقابلين ، وجعلوا فيها علامات (١).

ثم ولى ابنه قطيم وهو أبو الأقباط ؛ وكان (ا) جبارا عظيم الخلق وفى أيامه هلكت عاد (٢) بالريح ، فكان ملكه ٤٠٠ سنة . وكان قد عمل

(ا) هنا ينتهى الخرم الموجود فى ج (أنظر هامش ١ ص ٦٦) .

(١) انظر البكرى ، المخطوط ، ص ١٧ — ١٨ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩ ، ٢٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠

(٢) عاد هى القبيلة التى قضت عليها العاصفة كما هو مذكور فى القرآن ، سورة ٨٦ ، آية ٦

لنفسه قبل موته سربا تحت الأرض معقودا على آزاج فى الجبل الغربى ، وجعل فيه من الذخائر والغرائب والتماثيل ، ومن الطلسمات والعجائب التى يطول وصفها ، كما كان فى نواويس آبائه .

قال ، فما زال هؤلاء الملوك من ذرية مصر بن ينصر يتوارثون الملك خلف عن سلف ، إلى أن كان منهم ملك يسمى عديم . وكان عاقلا عالما ، وهو أول من صلب . وكان سبب ذلك أن امرأة ورجلا زنيا فى أيامه . فأمر بهما فصلبا على منارين بناهما لهما ، وجعل ظهر كل واحد منهما إلى ظهر الآخر . وطلاهما بأطلية مانعة لفناء جثتهما ، وزبر على المنارين اسماهما وما فعلا . وتاريخ الوقت الذى عمل بهما ذلك فيه ؛ فانتهى الناس فى أيامه عن الزنا . وناووس عديم هذا من أعاجيب الدنيا ، وهو فى صحراء قفط (ا) على وجه الأرض . وهو قبة عظيمة من زجاج أخضر براق ، معقودة على ثمانية آزاج ، قدر قطرها (ب) ١٠٠ ذراع وارتفاعها فى الهواء ١٠٠ ذراع ، يخضر بخضرتها ما حولها من الأرض وعلى رأس القبة طائر من الذهب منشور الجناحين موشح بجوهر نفيس ، وهو طلسم تلك القبة ؛ يمنع الوصول إليها وإلى ما فيها . وذكر أن قوما قصدوا ذلك الناووس فى صحراء قفط ، ورأوا القبة وعاينوا ما فيها ، وأقاموا عليها أياما لا يقدرون عليها ؛ وكانوا منها على قدر ٨ أذرع ، وكانوا إذا قصدوها (ج) دارت القبة على يمينهم وشمالهم . وذكروا أنهم عاينوا مافيها من العجائب ، وأنهم رأوا الملك وهو على سرير من ذهب ، مشبك عليه ثياب منسوجة بالذهب منظمة بنفيس الجواهر ، وهو مكشوف الوجه ، فقدروا وجهه بذراع ونصف ، وقدروا طول بدنه بـ ١٠ أذرع ، وله لحية كبيرة . وفى جانب القبة ١٧٠ مصحفا من مصاحف الحكمة ، وفيها ٧ موائد على كل مائدة أوانيها : فمنها مائدة در رمانى وآنيتها منها ، ومنها مائدة ذهب أحمر يختطف الأبصار وهو الذهب الذى يعمل منه تيجان الملوك وآنية المائدة منها ، ومنها مائدة من حجر الشمس المضىء وآنيتها منها ، ومائدة من الزبرجد الذى إذا نظرت إليه الأفاعى سالت عيونها ، ومنها مائدة كبريت أحمر مدبر على ما ذكروه من تدبيره فى مصاحف حكمتهم وآنيتها منها ، ومائدة ملح أبيض براق (د) يكاد نوره أن يخطف الأبصار

(ا) القراءة فى النص « نبط » ولكنا فضلنا قفط حسب البكرى (المخطوط ، ص ٢١) والمقريزى (الخطط ، ج ١ ص ٣٣) .

(ب) « قطرها » ناقصة فى ب . (ج) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

(د) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

وآنيتها منها ، ومنها مائدة زئبق معقود وحافاتها وقوائمها زئبق أصفر معقود وآنيتها من زئبق أحمر معقود . وقيل وجعل معه فى القبة جواهر عظيمة ، وأوانى من الفضة المدبرة ، وجعل حوله سبعة أسياف صاعقية وسبعة كاهنية ، وفى القبة معه تماثيل أفراس من ذهب ، وعليها سروج من ذهب ، وعدة توابيت مملوءة بالدنانير التى ضربها وصور عليها صورته . وفى تلك القبة أشياء من العجائب والغرائب يطول وصفها (١).

وقيل إنه ملك من ذرية هؤلاء الملوك ملك يسمى ساوس ، وهو أول من عبد البقر . وقيل إن السبب فى ذلك أنه اعتل بعلة يئس فيها من نفسه ، وأنه رأى فى منامه صورة روحانى عظيم الخلق يخاطبه ويقول له : لا يخرجك من علتك إلا عبادة البقر ، لأن الطالع كان حلوله بك فى صورة ثور . فأمر ذلك الملك بأخذ ثور أبلق حسن الصورة ، فبنى له مجلسا فى وسط قصره عليه قبة مذهبة ، ووكل به سادنا ، وكان يبخره له ويطيبه . وكان يعبده سراً من أهل مملكته ، فبرأ من علته وعاد إلى أحسن حاله . وقال آخرون وكان السبب فى ذلك أن هذا الملك كان يتفقد بلاده ويطوف عليها ؛ وهو أول من عملت له العجل ، وعملت عليها قباب من خشب مذهبة وفرشت بالفرش . وكانت البقر تجره فيطوف على جميع بلاده ، فإذا مر بالمكان الخرب أمر بعمارته . فقيل إنه نظر ذات يوم إلى ثور من تلك البقر التى كانت تجر تلك العجلة التى كان فيها الملك ، وكان ثورا أبلقا حسن الهيئة ، فأعجبه فأمر بإزالته من جر العجلة وسوقه بين يديه ، وجعل عليه حللا من فاخر الديباج . فتفرد به يوما ينظر إليه ، فبينما هو قائم بين يديه خاطبه الثور فقال له : لو رفعتنى أيها الملك كفيتك جميع أمورك ، وأعنتك على ما تريد ، وقويتك على ملكك وأزلت عنك جميع عللك . فارتاع الملك من كلامه ، وأمر به حينئذ وغسل وطيب وبنى له هيكلا ، وأمر بعبادته . وكان فى ذلك الثور آية أنه لايروث ولا يبول ولا يأكل إلا أطراف ورق الشجر مرة واحدة فى الشهر . قال فافتتن الناس به ، وصار ذلك أصلا لعبادة البقر بأرض مصر . وصار ذلك الثور يعبد مدة ثم إن ذلك الثور أمرهم أن يصنعوا صورة مثل صورته من ذهب مجوفة ، ويؤخذ من رأسه شعرات ومن ذنبه ومن تحت قرونه ومن أظلافه ويجعل فى ذلك التمثال . وعرفهم أنه لاحق

(١) انظر ابن وصيف — شاه ، الترجمة ، ص ٢٤٧ . وقارن البكرى ، المخطوط ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٣ ، ١٣٧

بعالمه ، وأمرهم أن يجعلوا جسده فى حرز من حجارة وينصب فى الهيكل ، وينصب تمثاله عليه ، ويكون ذلك وزحل فى شرفه ، والشمس مسعودة تنظر إليه من تثليث ، والقمر زائد ، وتنقش على التمثال علامات الكواكب السبعة . فأمر الملك فعملت صورة الثور من ذهب ، وكللت بأصناف الجوهر ، وصنعوا سائر ما أمرهم به ذلك الثور ، وفى الوقت الذى حدد لهم . وكان ذلك التمثال يخبرهم بالعجائب وما يحدث وقتا وقتا ، ويجيبهم عن جميع ما يسألونه عنه ، فعظم أمر ذلك التمثال ، فنذرت له النذور وقربت له القرابين ، وقصده الناس من الآفاق فكان يخبرهم بما يريدون . وبقيت عبادة البقرسنة فى دولة ذلك الملك يتوارثونها خلف عن سلف (١) ، إلى أن ملك منهم ملك يقال له ما ليق ، وكان موحدا على دين من سبق من أجداده ، قطيم ومصر ، فكانت القبط تذمه لذلك ؛ وكانت القبط تعبد الكواكب والبقر . وكان هذا الملك يستعمل الغزو والجولان على البلاد ؛ وزعم بعض أهل مصر أن الله تعالى أيده بملك من الملائكة يوعظه ويرشده ، وربما أتاه فى نومه فأخبره بالأشياء وأمره ونهاه . فجمع جيوشا عظيمة وأتخذ سفنا كثيرة فى البحر ، وغزا جموع البربر برا وبحرا وهزمهم وأستأصل أكثرهم ، وبلغ إفريقية وقتل أكثر أهلها وكانوا على الكفر . واتخذ فى بحر الروم ٤٠٠ سفينة ، وكان لا يمر بأمة إلا أبادها إلى أن غزا بلاد الأندلس . ومشى إلى بلاد الافرنج وكان بها ملك عظيم ، فحشد أمم نواحيه وأقام يحاربه شهرا ثم طلب السلامة والأمان ، وأهدى إليه هدايا كثيرة . فسار عنه ودوخ الأمم المتصلة بالبحر الأخضر وأطاعه أكثرها ، وعمل أعلاما على البحر الأخضر ، وزبر عليها اسمه وتاريخ الوقت الذى عملها فيه . وخرب مدن البربر حيث كانت حتى الجأهم إلى ذرى الجبال ، ثم رجع إلى مصر ، فتلقاه أهل مصر بصنوف اللهو والطيب ، وفرشت له الطرقات بأنواع الرياحين والأزاهير ، ودخل قصره وهو غانم موفور ؛ وذلك صنع الله لمن وحده ولم يشرك به شيئا . وأمر أن يبنى له ناووس فكان يتعبد فيه ، فلما حضرته الوفاة أمر أن يدفن فيه ، وألا يدفن معه ذهب ولا فضة ولاجوهر . فلم يدفن معه سوى الطيب ، وصحيفة مكتوبة بخطه : هذا ناووس فلان

(١) قارن البكرى ، المخطوط ، ص ٢٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٣٨

ابن فلان الملك، مات مؤمنا بالله لا يعبد معه غيره ، بريئا من الأصنام وعبادتها، مؤمنا بالبعث والحساب والمجازاة على الأعمال، فمن أحب النجاة من عذاب الآخرة فليؤمن بما أومن به (١) .

وكان من ذرية هؤلاء الملوك، كَلْكَن الملك الجبار، كان يعقد التاج على رأسه ، وكانت دار مملكته منف، وهى كانت دار الملوك قبله . وكان يحب الحكمة ؛ وإظهار الحكمة والعجائب ، ويقرب العلماء والمنجمين وأهل الصنعة ، فلم تعمل الكيمياء قط فى وقت من الأوقات كما عملت فى أيامه ، حتى أستغنى أهل ذلك العصر عن معادن الذهب فلم يشتروها ، ولم يكن الذهب أكثر منه فى أيامه ، ولا الصنعة أقوى منها فى وقته . كان يطرح المثقال من مثاقيل الكيمياء على القناطير الكثيرة من الفضة فيصبغها . ويحكى القبط عنه أنه اخترع أشياء تخرج عن حد العقل حتى أنهم يسمونه حكيم الملوك ؛ غلب جميع الكهنة فى علمهم حتى كان يخبرهم بما غاب عنهم فخافوه . وفى وقته كان نمرود ابراهيم الخليل عم (ا) ؛ وكان نمرود جبارا شديد البأس ، وكان ملكه بالعراق ، وكان قد أوتى قوة وبطشا فغلب على أكثر الأرض، فأراد أن يستوزر كَلْكَن الملك . وبعث إليه فى ذلك فخافه كلكن وأجابه إلى ذلك، ووجه إليه أنه يريد أن يلقاه منفردا من أهله وحشمه ، ليريه من حكمته وسحره ؛ فسار النمرود إلى موضع يلقاه فيه كلكن . فأقبل كلكن تحمله أربع أفراس ذوات أجنحة ، وقد أحاط به نور كنار ، وهو فى صورة مهيبة ؛ فدخل بها وهو متوشح تنينا عظيما ، والتنين فاغرفاه ، ومعه قضيب آس ؛ فكلما رفع التنين رأسه ضربه بالقضيب الذى بيده ، فلما رأى النمرود هاله ماراًه ، واعترف له بجليل حكمته وسأله أن يكون له ظهيرا ففعل . وتزعم القبط أن كلكن الملك كان يجلس إلى الهرم الغربى، وهو أعظم الأهرام ، فى قبة على رأس الهرم . وكان يجمع إليه رعيته وحشمه ويأمرهم وينهاهم من أعلى الهرم ، ويقيم

(ا) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

(١) أنظر ابن وصيف – شاه ، الترجمة ، ص ٣١٣ ؛ البكرى ، المخطوط ، ص ٢٧ – ٢٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٦٢ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٩ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٥ . حسب ابن الفقيه (ص ٦٧) كانت مملكة فرعون تمتد غربا حتى تشمل بلاد المغرب والأندلس .

بذلك الموضع أياما كثيرة لا يأكل ولا يشرب ، ثم إنه غاب عنهم فلم يقفوا على موته ولا على شىء من أمره . وكان عهد إلى أخيه ماليا فلما غاب عنهم أقاموا ماليا أخاه مقامه ، فكان همه فى الأكل والشراب والرياسة ، غير ناظر فى شىء من الحكمة ، وانما استقام له الأمر بهيبة أخيه كلكن ، وتقديرهم أنه لم يمت وأنه سيرجع إليهم . وكان لماليا ولد كان أكبر ولده ، وكان جبارا جريئا شديد البأس ، وكان يدجهل أباه لخلوده إلى الراحة ، فأعمل الحيلة فى قتله وحملته على ذلك أمه وبعض وزراء أبيه ، فهجم على أبيه فى رواقه وهو سكران فقتله ، وقتل معه امرأة له من بنات الملوك كانت قد غلبت على أمره، فقتلها وصلبها وجلس على سرير ملك أبيه . وكان مهيبا شديد البأس كثير القتل ، فتزعم القبط أنه أول الفراعنة بمصر ، وأنه فرعون ابراهيم عم (١) .

والفراعنة سبعة وهو كان أولهم . وقيل إنما سمى فرعون لأنه أكثر القتل حتى قتل قرابته وأهل بيته وخدمه ونساءه وكثيرا من الكهنة والحكماء . وكان حريصا على الولد فلم يرزق ولدا غير ابنة واحدة سماها حورية ، وكانت عاقلة حكيمة ، وكانت تسدد أباها كثيرا ، وتمنعه من كثير من الشر والقتل . فلما رأت أمره يزداد فسادا خافت على زوال ملكه فسمته ، فمات بعد أن ملك سبعين سنة . فتنازعوا فى تمليكها عليهم ثم اجتمعوا عليها إلا أهل مدينة أبريت فانهم ملكوا عليهم رجلا منهم ، وكان من ولد أبريت بن مصر الملك المتقدم الذكر ، وبه سميت مدينة أبريت ، يقال له أبراحش . فجرت بينهم حروب كانت الدائرة فيها على أبراحش ، فهرب خوفا من حورية إلى الشام ، وكان بها الكنعانيون من ولد عمليق ؛ فاستغاث بملكهم فأخبره بأمره وقرب عليه مصر ، وسول له تصييرها إليه . فجهز ملك الشام مع أبراحش جيشا عظيما (ا) ، وقدم عليه رجلا من قواده ، فلما قرب من مصر بعثت حورية (ا) طيرا لها إلى جيرون تقول له : إن فلانة سمعت بك وأحبتك ، وهى تريد زواجك وأن تكون لها أهلا ، وتعطيك بلاد مصر . فسر جيرون بما سمع منها ورغب فيما قالت له ، ثم عقدت معه أن يقتل أبراحش . فقال

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ب .

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٦ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣٦ – ٣٧ ، ١٤٠

لها وكيف أصنع؟ فأخرجت له سما ، فسم به أبراحش فمات فى الحين . فلما أراد أن يصل إليها بعثت إليه أنه لا يجوز أن أتزوجك حتى تظهر فى بلادى قوتك وحكمتك لكى أعذر فى زواجك، وأريد أن تبنى لى مدينة عجيبة أدخل معك فيها ، فإنى أكره الدخول عليك فى بلادى وبين أهل بلدى . وأن مدينة فى بلاد مصر كانت لأوائلنا قد خربت ، فانظر موضعها واظهر حكمتك فيها ، وبعثت معه من يريه الإسكندرية .

قيل فجد جيرون فى بنائها ، وبعثت إليه حورية من مصر مائة ألف صانع ، فأقام فى بنائها مدة وأنفق جميع ما كان معه من المال ، فلما فرغ من بناء المدينة ، وجه إليها يعلمها بتمام المدينة وبحثها على القدوم عليه . فوجهت إليه فرشا كثيرة فاخرة وآلات عجيبة ، وقالت له : « قسم جيشك أثلاثا وابعث الثلث الأول ، حتى إذا بلغت نصف الطريق فابعث إلى الثلث الثانى ، فإذا بلغت الثلثين من الطريق ، فابعث إلى الثلث الثالث حتى يكون الجيش من ورائى ومن أمامى، لئلا يرانى أحد إذا دخلت عليك؛ ولا أحب أن أجد معك سوى صبية تخدمك . ثم أقامت تجهز له الجهاز والأموال حتى أيقن بإقبالها ، فوجه إليها ثلث جيشه . فعملت لهم الأطعمة والأشربة المسمومة وخرجت إليهم فى خيولها وخدامها ، فلما لقوها أنزلتهم وأمرت حشمها فأقبلوا عليهم بالأطعمة والأشربة والطيب ، كل ذلك من مسموم ، فلم تصبح منهم عين تطرف(١) . ثم سارت فلقيها الثلث الثانى من الجيش ، ففعلت بهم كذلك . ثم سارت فلقيها الثلث الثالث ، ففعلت بهم مثل ذلك ، وهى تبعث إليه وتقول : إنى بعثت الجيش إلى مصر يحفظها بعدى ، إلى أن دخلت على جيرون هى وطير لها وجوار كن معها ، فرشقت طيرها عليه ، فارتعدت مفاصله وخارت قواه ، ولم يملك نفسه شيئا فأيقن بالهلاك ؛ وقال جيرون : « من ظن أنه يغلب النساء فقد كذبته نفسه » . فقيل إنها فصدته وأسالت دمه حتى مات ، فقالت : « دماء الملوك شفاء النفوس » . وأخذت رأسه فوجهت به إلى قصرها فنصبته عليه ، وحملت بيوت أمواله إلى منف دار مملكتها ، وبنت حينئذ منار الإسكندرية ، وزبرت عليه اسمها واسمه ، وما أراد وما فعلت به ، وتاريخ الوقت الذى كان فيه ذلك . ويذكر فى بناء منار الإسكندرية غير ذلك مما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى . قيل فلما اتصل خبر حورية بالملوك وما فعلت بالجيش الذى دخل بلادها ، هابوها وعظمت فى أعينهم ، فمن كان

(١) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

ينازعها ويروم أخذ بلادها كف عن ذلك فاشتد ملكها وعظم أمرها ، وبنت حصونا على بلاد مصر من ناحية النوبة . وعملت طلاسم كثيرة وأعلاما وأشياء كثيرة يطول وصفها (١).

قيل فلما ضعفت حورية عن الملك عهدت إلى بنت عم لها تسمى دليفة . فلما هلكت حورية ضعفت دليفة عن الملك ، وخرج عليها أيموش يطلب ثأر خاله أبراحش ، واستنصر بملك العماليق صاحب الشام فأجابه ، وخرج فى نصرته لما كانت حورية فعلمت بقائده وبجيشه فيما تقدم . وقدم جيش أيموش ، فخرجت إليه دليفة تحاربه فغلبها ، فلما أيقنت بالغلبة سمت نفسها فهلكت فى الحين . ثم إن ملك الشام العمليقى غلب على مملكة مصر ، وكان اسمه الوليد بن دومع ، وأصل العمالقة من العرب العاربة ، وكان شديد البأس فأباد الأمم ودوخ البلاد حتى بلغ فيما يقال إلى جبل القمر الذى ينبعث من تحته النيل ، وإنما سمى جبل القمر لأن القمر يطلع عليه أبدا لخروجه عن خط الاستواء ، وبلغ هيكل الشمس وأرض الذهب ، وهى أرض تنبت قضبان الذهب ، واستعبد هذا الملك القبط وملكهم ١٢٠ سنة ثم هلك . ويقال إنه ركب ذات يوم فرسا وخرج متصيدا فركض به الفرس فقتله ، ودفن فى بعض تلك الأهرام (٢) . ثم ملك بعده ابنه الريان بن الوليد ، وهو فرعون يوسف عم ، والقبط تسميه نقراوش ، وكان عظيم الخلق جميل الوجه عاقلا محسنا إلى الناس . لما ولى بعد أبيه أسقط الخراج عن الناس ٣ سنين ، وفتح خزائن الأموال وفرق على الضعفاء فأحبه الناس وشكروه . وكان يميل إلى الراحات وغلبت عليه اللذات ، وملك أمر الناس رجلا من أهل بيته يقال له قطفير ، وهو الذى يسميه أهل الأثر العزيز . وقد ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم فى قصة يوسف عم (٣) ، وكان رجلا عاقلا حصيف الرأى نزيه النفس مؤثرا العدل ، وأمر أن ينصب له فى قصره سرير من الفضة يجلس

(١) ابن وصيف – شاه ، الترجمة ، ص ٣٢٢ . وقارن البكرى ، المخطوط ، ٣١ – ٣٢ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٦ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤١ . وعن الأساطير المختلفة الخاصة ببناء الاسكندرية أنظر فيما بعد ، ص ٩١ وهامش ٢

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٣٤ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١١ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٧

(٣) القرآن ، سورة ١٢ ، آية ٨٨

عليه والوزراء والكتاب بين يديه ، وقام بجميع أمور الملك الريان وكفاه أحسن الكفاية ؛ والملك مشتغل بلذاته عاكف عليها ، قد صنعت له مجلس من الزجاج الملون ومن البللور الشفاف والبللور المصبوغ ، وأرسل حواليها المياه ووضع فيها السمك ، فكانت الشمس إذا وقعت على ذلك الموقع أرسلت شعاعا عجيبا يبهر العيون ، وعملت له متنزهات على النيل وعلى غير النيل على عدد أيام السنة ، وكان ينتقل(١) كل يوم إلى متنزه منها ، وكان فى كل متنزه من الفرش الغريبة والآنية العجيبة ما ليس فى غيره . وفى أيامه كان من أمر يوسف عليه السلام ما قصه الله تعالى فى محكم تنزيله ، وخبره مع امرأة العزيز وهى زليخة بنت صاحب عين الشمس ، وعين الشمس مدينة عظيمة من مدن أهل مصر فيها عجائب . وكانت زليخة بنت عم العزيز ، واسم العزيز قطفير بلغة القبط ، واسم الملك نقراوش بلغة القبط ، وقد ذكر الله تعالى اسم العزيز فى كتابه العزيز (١) .

ذكر ما نقله القبط من خبر يوسف عم

قيل إن فى كتب تواريخ القبط أنه أدخل مصر غلام من أهل الشام كان قد باعه أخوته ، وكانت قوافل الشام تعرس بناحية الموقف (٢) اليوم ، فأوقف غلام فنودى عليه وهو يوسف عم فبلغ زنته ذهبا ، فاشتراه قطفير وهو العزيز ليهديه للملك . فلما أتى به منزله ورأته زليخه امرأته ، قالت له أتركه لنا نربيه ففعل ؛ فكان من أمر افتتانها به ما قصه الله تعالى (٣) إلى أن رأى الملك الرؤيا ؛ فأخرج يوسف من السجن ، وأمر بغسله وكساه الثياب الرفيعة ، وحمل إليه فلما دخل عليه ورآه امتلأ به سرورا وألقيت عليه منه المحبة والهيبة ، وسأله عن الرؤيا ففسرها له كما ذكر الله تعالى ؛ فقال له الملك ومن يقوم لى بذلك ؛ فقال له يوسف أنا ، فإنى حفيظ عليم . قيل فرأى الملك امتحان يوسف عم ومعرفته فأمر له بعمل الفيوم ، وكان موضعا يفيض فيه ماء النيل ، فأقام تلك الأرض وأتى بتلك الحكمة

(١) « كان ينتقل » ناقصة فى ب .

(١) القرآن ، سورة ١٢ آية ٨٨ ؛ الطبرى ، ج ١ ص ٣٧٨

(٢) كان « الموقف » سوقا للحيوانات . انظر ابن دقاق ، ص ٣٤ . وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٦٨٨

(٣) القرآن ، سورة ١٢

المعجزة والآية البينة فى ٤ أشهر ، وقيل فى ٩٠ يوما ، وشق تلك الخلجان الثلاثة فلما فرغ يوسف عم من عمل الفيوم وأعلم بذلك الملك ، خرج هو ووزراؤه وأهل دولته ينظرون إلى ما صنع يوسف عم ، فلما نظر الملك إلى حكمة صنع ذلك الموضع فى مدة يسيرة ، قال الملك لوزرائه : هذا عمل ألف يوم ؛ فسمى الفيوم من حينئذ . قيل فسر الملك بيوسف سرورا عظيما وخلع عليه وألبسه تاجا مكللا بفاخر الجوهر ، وأمر الجيش أن يركب معه ويطاف به و يرد إلى القصر ويجلس على سرير العزيز . وكان العزيز قد مات فاستخلفه الملك على ملكه ، وسماه العزيز وزوجه امرأته زليخة ، فدخل بها يوسف عم فوجدها عذراء فقال لها هذا أصلح مما أردت ، فقالت له اعذرنى فإن زوجى كان عنينا ، ولم تكن تراك امرأة فى حسنك وجمالك إلا صبا قلبها إليك .

قيل فلما جاءت سنين الخصب أخذ يوسف فى توفير الغلات والاستكثار من الأقوات ، وبنى لاختزان الزرع مخازن عظيمة ، ويقال إن بعضها باق إلى الآن فإن الطعام كان يختزن بسنبله كما ذكر الله تعالى . فلما جاءت سنين الجدب ونقص فيض النيل وتوالى نقصانه فأحسن يوسف عم السياسة والتدبير فى تلك المجاعة ، وقسط بيع الزرع بين الناس فلا يبيع لأحد إلا بقدر حتى ساوى بين الناس ؛ ولولا ذلك لهلك الناس . وقيل إنه صار ليوسف جميع أموال أهل مصر بما باع منهم من الطعام ، فإنه باع منهم بالذهب والفضه والحلى والثياب والدواب والأبنية والعقار ، وبجميع ما بأيديهم من الأموال ، حتى أنه يقال إنهم باعوا منه أولادهم ونساءهم وأنفسهم حتى صاروا له كلهم عبيدا ، وتلك كرامة من الله أكرمه بها لأجل ما بيع ببلدهم (١) . فمن ذلك الوقت صارت أرض مصر كلها للسلطان ليس للرعية فيها ضيعة ولا فدان . وقد اعترضهم بعض ولاة مصر فى أيام بنى عبيد الذين كانوا بها قبل اليوم ملوكا ، وأراد أخذ ديارهم واحتج عليهم بهذا القول . قيل وقحط أهل الشام فى ذلك الوقت ، فكان من أمر يوسف مع أخوته ما قصه الله تعالى فى كتابه . فوجه يوسف عم إلى أبيه وحمله من الشام إلى مصر بجميع أهله وولده ، فلما قرب يعقوب عم من مصر خرج

(١) أنظر البكرى ، المخطوط ، ص ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ؛ الطبرى ، ج ١ ص ٣٧٦ وتابع ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٢ ، ١٣ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ؛ الاصطخرى ، ص ٥٠ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٧ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤١ وتابع .

إليه يوسف فى وجوه أهل مصر، وتلقاه وأدخله على الملك، وكان يعقوب عم نبيا جليلا فصيحا فأعظمه الملك وأحبه . قيل فدعاه يعقوب إلى توحيد الله تعالى ونبذ الأصنام ، وكان يوسف قد قدرعنده ذلك فتمكن من استبصار الملك وآمن . فيقال إنه كتم إيمانه خوفا من ذهاب ملكه ، ثم لم يزل يعقوب عليه السلام مكرما معظما حتى حضرته الوفاة ، وذلك فى حياة الملك الريان بن الوليد ، فأوصى يعقوب أن يدفن فى مكانه ومكان آبائه بالشام ، فوضع فى تابوت وخرج به يوسف ووجوه أهل مصر حتى بلغوه إلى موضعه . قيل فمنعهم عيصوم أخو يعقوب أن يدفنوه هناك لأن إسحاق عم آباهما وهب لعيصوم ذلك الموضع حتى اشتراه يوسف منه ودفن فيه يعقوب . ثم انصرف يوسف إلى مصر ، وولد له بعد ذلك أولاد كثير .

ثم هلك الملك الريان واستخلف ابنه دريموس بن الريان ، وهو فرعون الرابع ويسميه أهل الأثر دارم ، وكان الملك الريان قد أوصى ابنه دريموس أن يبقى يوسف على ما كان عليه(ا) من استخلاف وحجابة وأن يسمع من رأيه ، فبقى يوسف على ما كان عليه(ا) . وكان الملك دريموس يسمع من رأيه غير أنه خالفه فى دينه وما كان اعتقده أبوه ، فكان يخدم القمر لأنه كان طالعه ، فكان يصنع له أصناف الفضة وينصبها فى قصر الرخام الذى بناه أبوه فى شرق النيل . قيل وقبض يوسف عم بعد سنين من ولاية هذا الملك ، فجزع عليه جزعا شديدا وكذلك أهل مصر ، وأمر الملك أن يكفن فى ثياب الملوك ، وجعل فى تابوت من رخام ، ودفن فى الجانب الغربى من النيل عاما فأخصب ذلك الجانب ثم نقل إلى الجانب الشرقى عاما فأخصب أيضا ذلك الجانب ، فلما ظهرت لهم بركته رأوا رأيا أن يجعل التابوت فى وسط النيل ، فشدوه بالحبال ودلوه فى وسط النيل فأخصب الجانبان كلاهما جميعا (١) .

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ج .

(١) قارن البكرى ، المخطوط ، ص ٤١ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٨٧ ؛ الطبرى ، ج ١ ص ٤١٣ ، ٤٤٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤٤

ويقال إن الملك الريان بن الوليد صاحب يوسف عليه السلام لم يمت وانه عاش إلى زمان موسى ، وإنه فرعون موسى عم المذكور فى القرآن ، وإنه لما أطال الله فى عمره أدركه الإعجاب فتأله ودعا الناس إلى عبادته ، وقيل غير ذلك . وتنازع الناس فى أمر فرعون موسى عم ، فمنهم من رأى أنه من العمالق ، ومنهم من رأى أنه من لخم من الشام ، ومنهم من رأى أنه من الفرس من مدينة اصطخر ، ومنهم من رأى أنه من ولد مصر المتقدم المذكور والقبط أثبتت ذلك ، وزعم قوم من الأعاجم أنه من الأندلس من مدينة قرمونة ، وذكر أن اسمه الوليد بن مصعب . وكان سبب ملكه أنه دخل مدينة منف (ا) من البادية يحمل خمرا للبيع على أتان له ، وكان أهل منف(ا) قد اختلفوا فى (ب) تولية ملك عليهم فأجمعوا أن يملكوا أول من يدخل فى ذلك اليوم ، فكان أول داخل (ب) ذلك اليوم على باب المدينة فرعون ، فولوه الملك . ومدينة منف كانت فى ذلك الزمان قاعدة مدن مصر ودار مملكتها ، فلما تمكن ملك فرعون ببلاد مصر بذل الأموال وجمع الجيوش وقتل من خالفه وناوأه ومدن المدن وخندق الخنادق فاستقر له الأمر ، وكان جبارا معجبا يدعو الناس إلى عبادته ، ويقول لهم أنا ربكم الأعلى كما حكى الله تعالى عنه فى كتابه العزيز (١) . واستعبد بنى اسرائيل فكان من أمره مع موسى ماقصه الله تعالى . ثم ملك موسى بلاد مصر والشام (ج) لبنى اسرائيل يتوارثونها ملك عن ملك ، ومنهم كان داود وسليمان عم إلى أن بعث الله تعالى عيسى عم ، وظهر دين النصرانية ، ملك أرض مصر النصارى وكانوا يتوارثونها ملك عن ملك إلى أن جاء الله تعالى بالإسلام ، فدخل المسلمون بلاد مصر وملكوها فى أيام عمر بن الخطاب رضه .

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ب .
(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ب .
(ج) « الشام » ناقصة فى ب

(١) القرآن ، سورة ٢٠ ، آية . وقارن البكرى ، المخطوط ، ص ٤٢ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٨ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٧
عن مدينة منف أنظر فيما بعد ص ٨٣ وهامش ٢

قال عبد الرحمن بن عبد الله بن [عبد] الحكم (١) : لما كان سنة ١٨ من الهجرة [= ٦٤٠] فى خلافة عمر بن الخطاب رضه وقدم عمر رضه الجابية ، خلا به عمرو ابن العاص وقد كان دخل مصر فى الجاهلية وجرى له بها خبر الكرة (ا) ، فكان عمرو بن العاص يعرف أحوال مصر ، فجعل يعظم عند عمر بن الخطاب أمرها ، ويعرفه بكثرة جبايتها ويهون عليه أمرها وفتحها ، حتى ركن لذلك عمر رضه . فعقد له على ٤٠٠٠ وجهزهم معه ، وقال له : « سر وأنا مستخير الله تعالى وسيأتيك كتابى سريعا بما أرى إن شاء الله تعالى ، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف قبل أن تدخل أرض مصر فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصر به» . فسار عمرو بن العاص فى جوف الليل ولم يشعر به أحد ، ثم استخار عمر فكأنه تخوف على المسلمين فكتب إلى عمرو يأمره بالانصراف بمن معه ، فأدركه الكتاب وهو فى رفح فتخوف عمرو إن قرأ الكتاب يكون فيه الأمر بالانصراف ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل له إنها من أرض مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ثم قال لهم : ألستم تعلمون أن هذه القرية من أرض مصر؟ فقالوا بلى . فقال لهم إن أمير المؤمنين عهد إلى إن لحقنى كتابه وأنا لم أدخل أرض مصر أن أرجع بمن معى ، وإن كتابه لم يلحقنى حتى دخلت أرض مصر فسيروا على بركة الله . فساروا حتى توسطوا بلاد مصر فنزلوا بموضع على النيل وهو الفسطاط ، ولم يكن فيه حينئذ مدينة وإنما بنى الفسطاط عمرو . وكان ملك مصر فى ذلك الزمان المقوقس وهو الذى أهدى

(ا) القراءة فى ب : وجرا له الخير الكثير .

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحكم (توفى بالفسطاط سنة ٢٥٧ = ٨٧١ هو أقدم مؤرخى مصر العربية . وكتابه يعتبر أحسن وثيقة أصيلة وصلت إلينا عن افتتاح مصر على أيدى العرب ، ولذلك اقتبس منه معظم الكتاب فيما بعد . أما عن الصفحات التالية فقد أخذه عنه البكرى ، وعن هذا الأخير نقل مؤلفنا . أنظر البكرى ، المخطوط ، ص ٤٥ وتابع . وقارن ابن عبد الحكم ، ص ٤٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٩٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٨ وتابع ؛ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٥ وتابع ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٣ وتابع .

لرسول الله صلعم مارية القبطية ، فلما سمع المقوقس دخول المسلمين بلاده ونزولهم فى موضع الفسطاط ولم يكن له بهم علم راعه ذلك ، ونظر فى توجيه الجيوش إليهم . فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضه يستمده ، فأمده بأربعة الآلاف . ويقال إن أسقفا كان بالإسكندرية من أهل العلم بالكوائن ، لما بلغه قدوم عمرو مع المسلمين إلى بلاد مصر كتب إلى القبط يعلمهم أن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو والطاعة له ؛ فأطاعه كثير من القبط فاستعان بهم على من سواهم . ثم سار عمرو إلى البلد الذى كان فيه الملك المقوقس ، وكان حصنا عظيما مانعا وقد خندقوا حوله وجعلوا للخندق أبوابا وعلقوا شبك الحديد على تلك الأبواب ، فكان عمرو يفرق أصحابه على جوانب الحصن ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، ويغدوا بهم فى الأسحار ويصففهم على أبواب الخندق عليهم السلاح والدروع .

ثم إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضه بعث الزبير بن العوام فى ١٢ الفا فتقوى المسلمون ، فجعل عمرو يلح بالقتال ووضع المنجنيق ، فلما أبطأ الفتح على المسلمين قال الزبير بن العوام رضه : أنا أهب نفسى لله وأرجو أن يفتح الله على المسلمين . فوضع له سلم (ا) إلى جانب الحصن فرقى ثم قال لهم إذا سمعتم تكبيرى أجيبونى ، فما شعر أهل الحصن إلا والزبير على رأس الحصن يكبر والسيف بيده منتضى ، فتحامل المسلمون على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا أن ينكسر بهم ، فهرب أهل الحصن جميعا . وعمد الزبير إلى باب الحصن ففتحه واقتحم المسلمون فيه ، فلجأ الروم والقبط إلى الفوق وهو قصر منيع فى الحصن ، فحاربهم المسلمون نحو شهر ، وكان فى ذلك القصر المقوقس مع أكابر الروم والقبط ، فخاف المقوقس على نفسه وعلى من معه فخرج من باب خفى وترك فى القصر جماعة يقاتلون ، وسار إلى الجزيرة موضع دار الصناعة اليوم ، وأمر بقطع الجسر (ب) . ثم أرسل (ج) المقوقس إلى عمرو بن العاص : « إنكم قوم قد دخلتم بلادنا وطال مقامكم بأرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد اضلتكم الروم وجهزوا إليكم الجيوش ، وقد أحاط بكم هذا النيل وأنتم أسارى بأيدينا ، فابعثوا إلينا رجلا منكم نسمع كلامه فعسى أن يتأتى الأمر بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ،

(ا) ب : سلوم . (ب) ب : الجصر . (ج) « أرسل » ناقصة فى ب .

وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جيوش الروم فتندموا . فرد عمرو مع رسله أنه ليس بيننا وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال : إما أن تدخلوا فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لنا مالكم وعلينا ما عليكم ؛ فإن أنتم أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ؛ أو جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين . فلما رجعت رسل المقوقس قال لهم كيف رأيتموهم ، قالوا رأينا أقواما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ، إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على الركب وأميرهم كواحد منهم ، يغسلون أطرافهم بالماء ، فإذا حضرت صلاتهم لم يتخلف عنها أحد منهم ويتخشعون فى صلاتهم تخشيعا كثيرا . فقال المقوقس والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لزلزلوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، وإن لم يغننا صلح (ا) هؤلاء القوم وهم محصورون بهذا النيل فإنهم لن يجيبونكم إذا تمكنوا من الأرض . وكان ذلك وقت خروج النيل وفيضه ، والمسلمون قد أحدقت بهم المياه من كل جانب لا يقدرون على النفوذ إلى الصعيد ولا إلى غيره . ثم بعث إليهم عمرو بن العاص ١٠ رجال أحدهم عبادة ابن الصامت ، وكان أسود اللون من العرب ، وأمرهم أن يكون متكلم القوم فإنه كان فصيحا ، وأمرهم أنه لا يجيبهم إلا إلى أحدى ثلاث خصال وهى المتقدم ذكرها . فركبوا السفن ودخلوا على المقوقس ؛ فتقدم عبادة للكلام فهابه المقوقس لسواده وقال نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره ، فقالوا جميعا إن هذا الأسود سيدنا وأفضلنا رأيا وعلما . فكلمه عبادة (ب) ثانيا ، فقال المقوقس لأصحابه : لقد هبت منظره وإن قوله عندى لأهيب ، وإن هذا وأصحابه إنما خرجوا إلى خراب الأرض وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها . وقال نعطى كل من فى الجيش دينارين ونعطى أميرهم ١٠٠ دينار ونبعث إلى خليفتهم ١٠٠٠ دينار ؛ فلم يجبه عبادة إلا إلى إحدى ثلاث خصال . فقال المقوقس لأصحابه ماذا ترون ؟ فقالوا : أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا ما لا يمكن ولا نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه ، وأما ما أرادوا [من] أن يجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك ، فإن رضوا بأن نضعف لهم ما أعطيناهم وينصرفوا عنا كان أهون علينا .

(ا) « لم يغننا صلح » ناقصة فى ب .

(ب) هنا يوجد خرم فى ب يقدر بحوالى صفحتين تقريبا .

فانصرف عنهم عبادة بن الصامت وأصحابه ولم ينعقد بينهم صلح على شىء ، فألح عليهم المسلمون بالقتال حتى أذعن المقوقس لإعطاء الجزية عن القبط خاصة . وأما الروم فيخيرون فى المقام على الجزية والخروج إلى أرض الروم ، وتم ذلك (ا) بينهم وبين المسلمين ؛ قيل فأحصى (ب) يومئذ جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط فكانوا ٦٠٠٠ ألف ممن بلغ الحلم ، سوى الشيخ الفانى والصغير الناشئ والنساء . وفرض على كل رجل منهم دينارين فى السنة فكانت فريضتهم ١٢ ألف دينار ، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ثم زادت بمن استقرها من النصارى وغيرهم من النوبة ٣٠٠٠ دينار . فجعل عمرو يبحث عن الأموال ويضمها إلى بيت مال المسلمين ، فذكر له أنه عند عظيم الصعيد مال كثير ، فبعث إليه فيه فقال له ما عندى مال فسجنه . وسأل عمرو من كان يدخل إليه هل سمعوه يذكر أحدا ، فقالوا له سمعناه يكثر ذكر راهب بالطور ، فبعث عمرو فأتوا بخاتم المسجون فكتب كتابا على لسانه إلى ذلك الراهب بالرومية وختم عليه ، وبعث به إلى ذلك الراهب فأتى بقدرة نحاس مختومة بالرصاص فإذا فيها كتاب فيه : يا بنى إذا أردتم مالكم فاحفروا تحت الفسقية . فبعث عمرو الأمناء إلى الفسقية وهى الساقية ، فحفروا تحتها فاستخرجوا ٥٠ أردب دنانير ، والأردب نحو قنطار ونصف .

ثم أمر عمرو المسلمين ببناء دور يسكنونها بالفسطاط وهى مدينة مصر اليوم ، وإنما سميت مدينة مصر بالفسطاط لأن عمرو بن العاص حين دخل مصر ضرب فسطاطه بذلك الموقع ، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم أمر بنزع الفسطاط فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو لقد تحرم هذا منا بحرم ، فأمر الفسطاط فأقر مكانه وأوصى عليه . فقام المسلمون من الإسكندرية بعد فتحها وقال الناس أين ننزل فقيل الفسطاط ، لفسطاط عمرو الذى تركه فى المنزل مضروبا بالموضع الذى يعرف اليوم بدار الحصى . ثم بدأ عمرو ابن العاص ببناء المسجد وكان موضعه حدائق وأعناب فقطعت ، ووضعوا أيديهم على البناء فلم يزل عمرو ومن حضر من أصحاب رسول الله صلعم قياما حتى وضعت القبة ، فلما أتمه اتخذ فيه منبرا فكان يخطب عليه . وقال أبو تميم الجهانى : فوصل ذلك عمر بن الخطاب رضه فكتب إلى عمرو ابن العاص : أما بعد فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى فيه على رقاب المسلمين

(ا) « وتم ذلك » ناقصة فى ب و ج . (ب) القراءة فى النص « أحصا » .

أما بحسبك أن تقوم قائما والناس من تحتك ، فعزمت(ا)عليك إلا كسرته. ثم اختط عمرو داره التى هى اليوم عند باب المسجد بينهما الطريق ، وكذلك اختط جميع من أراد السكنى بمصر من المسلمين دارا لنفسه . وكان الزبير بن العوام اختط دارا وجعل فيها السلم الذى صعد (ب) عليه إلى الحصن المتقدم الذكر ، فلما ولى عبد الملك بن مروان اغتصبها من الزبير وأصفاها لنفسه ، فلما [ولى] أبو جعفر المنصور من بنى العباس ردها على هشام بن عروة بن الزبير (١) .

ذكر المشهور من مدن أرض مصر (٢)

منها مدينة مصر وهى الفسطاط (٣) الذى ذكرنا آنفا : وهى حاضرة بلاد مصر فيها من المبانى والمصانع والبساتين والغرف المشرفة على النيل والقصور ما يبهج العيون ويطرب المحزون .

(ا) هنا ينتهى الخرم فى ب (أنظر هامش (ب) ص ٨٠) .
(ب) « صعد » ناقصة فى ب .

(١) لا تتفق روايات الكتاب الآخرين مع هذه الرواية . حسب ابن دقاق (ص ٨ ، ١١) كان الزبير يملك دارين إحداهما فى زقاق القناديل والثانية فى المكان المعروف بسوق وردان . وهذه الأخيرة التى كانت تقع قرب دار عمرو بن العاص والمسجد هى المقصودة عند ما يتكلم الكتاب عن دار ابن الزبير . ويقول البعض إنها أدخلت فى المسجد (ابن دقاق ، ص ٦٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤٩) ويقول آخرون إنها راحت ضحية للحريق (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٩٥ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٧٧) .

(٢) يلاحظ أن المؤلف يكتفى بنقل المعلومات القديمة عن مدن مصر دون تصرف ، فهو لا يحاول تجديد معلوماته كما يفعل عند ما يتكلم عن أعمال بنى غانية فى إفريقية . والحقيقة أنه وقعت أحداث مدوية على أيامه فى مصر كان ينبغى أن يكون لها صدى عظيم فى المغرب ، مثلها فى ذلك مثل أحداث بنى غانية . فالقاهرة كان يهددها الصليبيون ، والفسطاط أحرقت (سنة ٥٦٤ = ١١٦٩) لوقف تقدمهم ضد العاصمة . ثم كثيرا ما كانت الفرما ودمياط وتنيس ضحايا لغاراتهم البرية والبحرية . لم يهتم صاحب الاستبصار بهذا ، وكل ما همه هو انتصارات صلاح الدين فى فلسطين فخصص لذلك صفحات فيما بعد (ص١٠٤-١٠٦) .

(٣) قارن البكرى ، المخطوط ، ص ٥٥ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٩٣ وتابع (عند ما يتكلم عن الفسطاط ، يذكر قصة الفتح السابقة) . أنظر ابن دقاق ، ص ٢ وتابع ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٨٨ و٢٩٦ وتابع ؛ ابن الفقيه ، ص ٥٩ ؛ المقدسى ، ص ١٩٧ ؛ الإدريسى ، ص ١٤١ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦٢ وتابع .

مدينة القاهرة : محدثة من بناء العبيديين الشيعة الذين كانوا بها ، بينها وبين مصر نحو ٣ أميال . وهى مدينة كبيرة فيها من القصور والمبانى ما يعجز الوصف عنه وكانت دار مملكة العبيديين . وكان الحاكم من بنى عبيد قد بنى بين الفسطاط والقاهرة مسجدا عظيما على ٣ مشاهد كانت هناك ، وجعل فيه سدنة وخدما يوقدون فيه السرج الليل كله . وذكر أنه أراد أن ينقل إليه جثة النبى صلعم ، وقد كانت توجهت له الحيلة فى ذلك غير أن الله دفع وأظهر الله تعالى أهل المدينة على ذلك وقاية لرسوله صلعم وردا لكيد عدوه . وذلك أن الحاكم بذل الأموال لرجال من شيعته فمشوا إلى المدينة فاشتروا دارا تلاصق مسجد رسول الله صلعم ، وبذلوا فيها مالا كثيرا ، وأخذوا ذرع ما بين الدار والقبر ، واحتفروا سربا عظيما حتى كادوا أن يصلوا إلى القبر المكرم ، فأطلع الله أهل المدينة على ذلك ، فقتلوا أولئك البغاة الفسقة ومثلوا بهم وردموا ذلك الحفير بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص فلا يطمع فى الوصول إلى مثل ذلك طامع أبدا (١) .

مدينة منّف : مدينة عظيمة أزلية قديمة . وهى كانت دار مملكة الملوك القدماء (ا) ، وكان بها فرعون موسى عليه السلام . وكان اتخذ لها ٧٠ بابا وفصل حيطان المدينة بالحديد والصفر ، وفيها كانت الأنهار تجرى من تحت سريره وكانت ٤ أنهار . ذكر رجل من ولد على بن أبى طالب رضه ، قال : رأيت بمنف دار فرعون ، وكنت أمشى فى مشارفها ومجالسها وغرفها (ب) وجميع سقائفها وحجورها فإذا ذلك كله حجر واحد منقور . فإن كان بناء قد أحكم حتى صار فى الاستواء كحجر واحد لا يستبان فيه جمع حجرين ولا ملتقى صخرتين فذلك عجب ، وإن كان جبلا واحدا فنقر الرجال فيه بالمناقير حتى خرقت فيه تلك المخارق فهو أعجب وأعجب (٢) .

(ا) ب : القديم ، ج : القديمة .
(ب) القراءة فى النص : مشارفه ومجالسه وغرفه .

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ٥٥ . قارن المقريزى (الخطط ، ج ٢ ص ٢٧٧ وتابع) الذى يتكلم بالتفصيل عن الجوامع الثلاثة المنسوبة للحاكم وهى جامع باب الفتوح والمسجد المعروف بجامع راشدة ثم جامع المقس ، ولكنه لا يذكر شيئا عن هذه القصة .

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٥٦ . وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص٦٦٧ ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٦ والترجمة ص ١٨٤ ؛ الاصطخرى ، ص ٥٤ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣١ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٩ . وأنظر ابن دقاق ، ص ١٣٠ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٣٤

مدينة دَلاَص : هى مدينة قديمة أزلية عجيبة البناء فيها غرائب ؛ وهى كانت مجتمع سحرة مصر(١) .

مدينة إخْميم : وهى مدينة كبيرة أزلية قديمة فى الضفة الشرقية من النيل ، وفيها أسواق وحَمَّامَات ومساجد كثيرة . وداخل سورها (ا) البِرْبِىَ المتقدم الذكر ، لم يتغير منه شئ . وفيها من عجيب المبانى والآثار ما يعجز الوصف عنه (٢) .

مدينة أسيوط : وهى مدينة قديمة أزلية مسورة على الجانب الغربى من النيل ، جميلة القصبة كثيرة الفوائد وهى أكثر بلاد الله قصب السكر وأطيب ؛ وفى وسط سوقها بربى تهدم بعضه (٣) .

مدينة عين الشمس : هذه مدينة قديمة أزلية وهى كانت مدينة فرعون ، وفيها آثار كثيرة ومبانى عجيبة من أساطين الرخام وتماثيل ونقوش ، وفيها بركة عظيمة وقد نقرت فى حجر صلد وحواليها كراسى من رخام ، فكان يجلس فرعون عليها وتملأ بالخمر وحواليها أنهار العسل وأنواع المشروبات ؛ وبالقرب منها صورة من رخام يخيل للناظر أنها تتكلم (ب) ، ذكر أنها كانت ماشطة فرعون . وبالقرب منها صنمان من حجارة كل صنم منها طوله ٦ أذرع ، أحدهما يبكى والآخر يضحك . وهذه المدينة كانت فى طاعة والد زليخة زوجة العزيز ، وكانت تعرف ببنت صاحبها (٤) .

(ا) ب : صورها . (ب) « تتكلم » ناقصة فى ب .

(١) أنظر البكرى ، المخطوط ، ص ٥٧ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣١ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٨١ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ؛ ويقول الادريسى (ص ٥١ والترجمة ، ص ٥٩) إنها مدينة صغيرة تسلط عليها البرابر من لواته وشرار العرب فأفنوا عمارتها .

(٢) عن بربى إخميم أنظر ابن جبير ، ص ٦٠ وتابع ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٤ ؛ الادريسى ، ص ٤٦ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ١٦٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٢ والهامش ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٣٣ – ب ؛ ابن دقاق ، ص ٢٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٣٩

(٣) أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٧٢ ، ج ٣ ص ٢٢٢ ؛ الادريسى ، ص ٤٨ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٤ ؛ ابن دقاق ، ص ٢٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٨٩

(٤) قارن عبد اللطيف ، ص ١٠٦ وتابع والترجمة ص ١٨٠ وتابع ؛ الاصطخرى ، ص ٥٤ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٧ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧١ ؛ ياقوت ،

مدينة أنْصِنا : وهى كانت مدينة السحرة فى زمن فرعون وأكثرها خراب . وكان بها أيضا بربى لم يبق منه اليوم إلا بيت واحد كأنه من صخرة واحدة . ويقال إن مارية القبطية التى أهداها المقوقس إلى النبى صلعم كانت من كورة أنصنا ، من قرية يقال لها جفن . ومدينة أنصنا لا يقربها التمساح والناس منه آمنون هناك . وأكثر ما يكون التمساح عدوانا بالشاطئ الذى يقابل أنصنا فى قرية يقال لها الأشمون ، لا يقدر أحد أن يقرب من شاطئها ، فإذا صارت التماسيح فى حد أنصنا تحولت على ظهورها حتى تجاوز حدها (١) ، وكذلك تصنع بفسطاط مصر فوق المدينة بنحو ١٠ أميال حتى تخرج عن حد المدينة بمثل ذلك .

مدينة قُوص (٢) : هى مدينة كبيرة أزلية قديمة فيها آثار كثيرة للأوائل ، وبينها وبين مدينة أسوان غيران منحوتة فى جبال هنالك فيها قبور الأموات لا يعلم لها عهد ، تستخرج منها المومياء الطيبة (٣) ، وهم يجدونها فى رممهم وبين أجفانهم . ويقال إن فى تلك الصحراء التى بين قوص (ا) وأسوان معادن الذهب ، غير أن البجاة وهم جنس من الحبشة تمنع منه ؛ وبلادهم بين بحر القلزم ونيل مصر ، ويسكن عندهم جماعة من العرب من ربيعة بسبب هذا

(ا) ب : قوم .

معجم البلدان ، ج ٣ ص ٧٦٢ ؛ ابن دقاق ، ص ٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٢٨ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٨١

(١) قارن المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠٤ ؛ الإدريسى ، ص ٤٥ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٩ ، ٢٠٤ (نقل لرواية البكرى الناقصة فى مخطوط باريز) ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٤٤ . حسب ابن رسته (ص ٨١) والمقدسى (ص ٢١١) يكون التمساح أخطر ما يكون قرب قرية سردوس ، حتى ليتمثل بذلك فيقال : « أحذر سردوس ولو كان الماء فى قادوس » . أما عن النيل والتمساح الذى شغل اهتمام كل الرحالة والجغرافيين العرب فيقول عنه الشاعر (المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٦ ص ٢٧٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٨٧٦) :

أظهرت للنيل هجراً ومقلية ... اذ قيل لى انما التمساح فى النيل
فمن رأى النيل رأى العين من كثب ... فما أرى النيل الا فى البواقيل

وكذلك عندما يمدح الشقندى اشبيلية يقول إن شرفها غابة لا سباع فيها وإن نهرها نيل خال من التماسيح (أنظر E. G. Gomez, Elogio del Islam espagnol. Madrid-Grenade. 1934).

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٠١ ؛ الادريسى ، ص ٤٩ ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥١

(٣) عن المومياء أنظر عبد اللطيف ، ص ١٥٠ والترجمة ص ٢٠٠